فكرة «الوقت» عند الصوفية

بقلم أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة

يشترط الصوفية على السالك للطريق الصوفى أن يلتزم آداباً معينة هى القواعد العامة التى ينبغى أن يراعيها فى جميع مراحل سلوكه على اختلافها . وبدونها لا يتهيأ له الوصول . يقول أبو حفص الحداد : « التصوف كله أدب . لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول » ، ويقول ذو النون المصرى : « إذا خرج المريد عن حد الأدب فإنه يرجع من حيث جاء » ، ويقول الجريرى : « التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الآداب » .

ومن أهم آداب السلوك عند الصوفية الخضوع لحكم « الوقت » ، ويعنى الصوفية بذلك أن يكون السالك للطريق خاضعاً لما يقيمه الله فيه من أحوال السلوك على اختلافها خضوعاً تاما بحيث لا يكون عندك أدنى تشوف إلى الانتقال من حال إلى حال ، وقت كل سالك ما هو عليه فى الحاضر . يقول القشيرى فى الرسالة : « سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله تعالى يقول : الوقت ما أنت فيه ، إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن ، يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان .

وقد يعنون بالوقت ما هو فيه من الزمان ، فإن قوماً قالوا الوقت ما بين الزمانين ، يعنى الماضى والمستقبل .

« ويقولون الصوفى ابن وقته ، يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال ، قائم بما هو مطالب به الحين » .

ويقول القشيرى كذلك : « وقد يريدون (أى الصوفية) بالوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم ، ويقولون : « فلان بحكم الوقت » أى أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب ، من غير

اختيار له ، وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع ، إذاً التضييع لما أمرت به وإحالة الأمر فيه على التقدير ، وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين » .

فالصوفى إذن خاضع على الدوام لحكم وقته ، ومستند إلى إرادة الله دون استناد منه إلى إرادته هو ، لأن الصوفية يؤمنون بأن الإرادة الإلهية مطلقة سارية فى الوجود كله ويخضع لها كل شىء ، والإرادة الإنسانية لا وجود لها على التحقيق إلى جانب إرادة الله ، ولكن هذا لا يستتبع عندهم إسقاط التكليف ، ولهذا رأينا القشيرى يصور الصوفى خاضعاً لحكم الوقت فيما ليس لله تعالى عليه فيه أمر أو اقتضاء بحق الشرع ، وبهذا ينتفى ترك المبالاة عن الصوفى فيما يتعلق بمأمورات الشرع ، وتثبت له إرادة خاصة فى مجال أفعاله الاختيارية التى يشعر بالقدرة عليها .

وعلى هذا الأساس ينبغى أن نفهم ما يعنيه الصوفية بالخضوع لحكم الوقت ، فهم ليسوا من الجبرية الخالصة فى شىء إذ لا يدعون إلى انتفاء الإرادة الإنسانية انتفاء حقيقياً ، بل هم يثبتون للإنسان إرادة ، ولكنهم يصفون هذه الإرادة بأنها عاجزة بالقياس إلى إرادة الله ، لأن الله قادر ، وقدرته تحيط بكل شىء ، وإذا قضى الله أن يقهر إرادة الإنسان فلا راد لقضائه .

ويترتب على ذلك أيضاً أن يكون من أدب الصوفى ألا يغتر بإرادته ، فإن إرادته ليست شيئاً بالقياس إلى إلى إرادة الله . إذ تتلاشى إرادته فى إرادة الله كما يتلاشى ضوء المصباح فى ضوء الشمس ، وأدبه الرضا التام بما يورده الله عليه من أقداره ، وأى فعل يشعر باغترار الإنسان بإرادته معناه عدم صدقه لله فى عبوديته .

يقول أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى فى أدب الوقت بالمعنى الذى ذكرنا : « منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته » .

ويشبه الصوفية الوقت بالسيف ، ويقولون « الوقت سيف قاطع » ، ويعنون بذلك أنه غالب عليهم بما يجرى الله به من قضائه وقدره كما أن السيف غالب بقطعه ، وقيل : معناه لين مسه قاطع حده ، فمن لاينه سلم ومن خاشنه اصطلم ، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ومن عارضه انتكس ، وأنشدوا فى ذلك :

وكالسيف إن لا ينته لان مسه
وحداه إن خاشنته خشنان

يقول القشيرى : « ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت ، وسمعت أبا على الدقاق يقول : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك ، يعنى لو محاك وأفناك لتخلصت حين فنيت ، لكنه يأخذ منك ولا يمحوك بالكلية ، وكان ينشد فى هذا المعنى :

كل يوم يمر يأخـــذ بعضى
يورث القلب حسن ثم يمضى

وكان ينشد أيضاً :

كأهل النار إن نضجت جلود
أعيدت للشقاء لهم جـــلود

وفى معناه :

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحيـــاء

والكيس من كان بحكم وقته : إن كان وقته الصحو فقيامه بالشريعة ، وإن كان وقته المحو فالغالب عليه أحكام الحقيقة » .

وقد أعجب الشافعى رضى الله عنه بفكرة الصوفية فى الوقت والخضوع لحكمه ، ولندع السيوطى يوضح لنا ذلك قائلا : « عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال : صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين . وفى رواية سوى ثلاث كلمات ، قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك . وقولهم : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وقولهم : العدم عصمة . فقولهم نفسك إن لم تشغلها بالحق هو فى معنى قوله على الصلاة والسلام : الكيس من دان نفسه ، لأن من حاسب نفسه لا يترك لها سبيلا إلى الاشتغال بالباطل ، إذ هو يشغلها بالمحاسبة عن الباطل . وقولهم : الوقت سيف ، يشبه آخر الحديث : « وعمل لما بعد الموت » ، إذ الذى يعمل للموت لا يقطعه الوقت ، بل هو الذى يقطع الوقت » .

ومما سبق كله يتبين لنا أن الصوفية قد يعنون بالوقت تارة الزمان الحاضر الذى هو واسطة بين الماضى والمستقبل على نحو ما يذكر القشيرى ومنه قولهم : الصوفى ابن وقته ، يعنون به أنه شاعر ومشتغل بما هو أولى به فى الحال ، وتارة بمعنى ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم ، ومنه قولهم : فلان بحكم الوقت ، يعنون أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختياره ، وهذا وهذا أيضا يكون فيما لا حكم فيه من جهة الشرع ، فأما ما فيه حكم من جهته فإن تضييعه وإحالة الحكم فيه على المقادير خروج عن الدين على نحو ما أورده القشيرى وغيره من الصوفية .

« يتبع »